البحث السابع والثلاثون

# السلوك العملى فى الجانب الدينى من فلسفة سبينوزا

( دراسة نقدية )

إعداد

**د/ صلاح حسن محمد على**

مدرس العقيدة والفلسفة فى كلية البنات الإسلامية بأسيوط

لجنة التحكيم

**أ.د / محمد عبد الصبور هلال** عضو اللجنة المحكمة

**أ.د / على حسن محمد على** عضو اللجنة المحكمة

# مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

**أما بعد ...**

فهذه دراسات عقدية فلسفية حول قضية مهمة من القضايا التى تهم الفكرين الدينى والفلسفى معاً .

أما أهميتها للفكر الدينى فلأنها تتصل بقضية الإيمان والحكم على المعتقد فى إطار معين ومقياس محدد .

وأما أهميتها من الناحية الفلسفية ، فلأنها تتصل بفكر فيلسوف من فلاسفة العصر الحديث ، فجر مسألة تأثر فيها ببعض السابقين عليه ، وأثارت عليه أصحاب النزعة الدينية فى عصره حتى اتهموه بالإلحاد ورموه به ، مما اضطره إلى نشر مؤلفه فى خفاء ، وهذه القضية هى قضية السلوك العملى و ارتباطه بالإيمان أى المنجى فى الآخرة ، وقد جاء البحث تحت مسمى :

**" السلوك العملى فى الجانب الدينى من فلسفة سبينوزا ـــ دراسة نقدية "**

وقد تناولت هذه المسألة عند هذا الفيلسوف من خلال كتابه " رسالة " اللاهوت والسياسة " على طريقة النماذج والأنماط لبعض القضايا حول هذه المسألة .

وقد رأيته ربط بين السلوك العملى وقضية الإيمان ، وعبر عنها فى رسالته بلفظ الإيمان صراحة ، فتناولت الاسم كما يراه هو ، ولا مانع فى ذلك باعتبار انى أناقش فكراً ، حيث إنه يرى أن الإيمان يرتبط بجانب عملى هو الطاعة ، وحصر تعاليم الكتاب المقدس ودعوة الأنبياء وتعاليمهم فى هذا الجانب العملى ، وأهمل الجانب النظرى أصلاً، فكان لابد من التدخل لبيان أن كلا الجانبين لا غناء به عن الآخر، فالمغالاة فيهما إفراط، وإهمال أحدهما دون الآخر تفريط .

وقد دعانى إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب أهمها :

١ ــ ميلى إلى البحث فى القضايا التى تتصل بالفكر الدينى والفلسفى معاً .

٢ ــ خطورة النظرية التى أثارها سبينوزا فى رسالته ، لا سيما وأنه قد حصر الإيمان فيها .

٣ ــ وجدت الفرصة سانحة أمامى لأبين أن هناك فرقاً بين حرية الاعتقاد كما يراها الإسلام ، وبين حرية الاعتقاد التى يراها سبينوزا فكان هذا من دوافع اختيارى للموضوع لإيضاح هذه المسألة من خلال البحث .

وقد قسمت البحث على النحو التالى :

أولاً : المقدمة وضمنتها أسباب اختيارى للموضوع وخطة السير والدراسة .

ثانياً: تمهيد : ويشتمل على نبذة موجزة عن سبينوزا وحياته ومؤلفاته .

ثالثاً : الفصول والمباحث وهى كالتالى :

الفصل الأول : السلوك العملى فى الإيمان :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : حقيقة الإيمان عند سبينوزا .

المبحث الثانى : الإيمان الصادق والكاذب .

الفصل الثانى : السلوك العملى فى دعوة الأنبياء والكتاب المقدس .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : السلوك العملى فى دعوة الأنبياء .

المبحث الثانى : السلوك العملى فى تعاليم الكتاب المقدس .

رابعاً : الخاتمة : وهى تشتمل على أهم نتائج البحث .

خامساً : الفهارس .

# تمهيد

## فى التعريف باسبينوزا

### حياته :

ولد بأمستردام من أسرة يهودية وأراد والده أن يصير حاخاماً فتلقى اللغة العبرية والتوراة والتلمود والفلسفة اليهودية للعصر الوسيط[1] .

لكنه صار فيلسوفاً وكتب باللغة اللاتينية وكان عليه كيهودى أن يتعلم حرفة يدوية، فاختار صقل العدسات ، وورث عن أبيه ميراثاً كبيراً لكنه تخلى عنه لأخته، وفضل أن يعيش بكد يده .

وتحول عن دراسة اللاهوت ـــ بعد أن شك فى الدين ـــ إلى دراسة العلوم الإنسانية وأخذ يتردد على الأوساط البروتستانتية فلقى فيها طبيباً يدعو إلى القول بوحدة الوجود، فتأثر به حتى ثارت عليه الطائفة اليهودية وطلبوا منه أن يتخلى عن الطبيب ودعوة وحدة الوجود لكنه رفض ، وطعن اليهود بخنجر فقضوا بإبعاده عن المدنية وغير اسمه العبرى باروخ إلى ما يقابله فى اللاتينية وهو بندكت[2] .

وأهم ما عرف به سبينوزا أنه عاش فى عزلة شبه تامة بعيداً عن الحياة الأدبية ومجتمع أبناء الذوات ، ويرجع ذلك ـــ من ناحية ـــ إلى كونه يهودياً فى مجتمع ينظر فيه إلى اليهود على أنهم أبناء طائفة منبوذة إلى حد كبير ، ومن ناحية أخرى فإن هذا يرد إلى الصيت الذى اكتسبه كواحد من الهراطقة والملحدين مما دعا الكافة إلى الابتعاد عنه والقدح فى سيرته[3] .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٠٦ .

(٢) الموسوعة الفلسفية د/ عبد المنعم الحفنى ص ٢٣٧ بتصرف يسير .

(٣) رواد الفلسفة الحديثة ص ٨٢ .

## مصنفاته :

تشبع سبينوزا بالمنهج الديكارتى وطبقه فى التراث اليهودى وفى كل الاستثناءات التى تركها خارج المنهج والعقائد والكتب المقدسة ، ونظم الحكم فكتب أولاً رسالة فى مبادئ فلسفة ديكارت مبرهناً عليها على الطريقة الهندسية ثم عرض من فلسفته فى الرسالة الموجزة فى الله والإنسان وسعادته ، ثم رسالة ثالثة فى إصلاح العقل، ثم رسالة فى اللاهوت والسياسة ، ثم كتاب الأخلاق الذى كتبه ونقحه عدة مرات ولم ينشر إلا بعد وفاته ، وأخيراً الرسالة السياسية التى لم يكملها[1] .

ولم ينشر فى الواقع شيئاً واحداً موقعاً باسمه أثناء حياته ... ، ومات سنة ١٦٧٧م عن عمر يناهز الخامسة والأربعين أثر إصابته بمرض السل محتقراً من الطائفتين المسيحية واليهودية على السواء ، بوصفه من الهراطقة الخطرين ، ولم يشرع الناس فى إعادة أحكامهم إلا بعد انقضاء أكثر من قرن من الزمان وأدركوا آنئذ عظمته الحقيقية[2] .

وبعد هذه اللمحة الموجزة عن حياة سبينوزا انتقل إلى فلسفته الدينية لنرى ما شابها من تفريط جعلها تخالف نهج السماء فى إرساء القواعد والأصول الدينية وارتباطها بالأخلاق العملية .

---

(١) الجمعية الفلسفية المصرية السنة السابعة ــ العدد السابع ــ المحور الثالث ص١٧٧ ط دار قباء بدون تاريخ .

(٢) رواد الفلسفة الحديثة ص ٨٣ .

# المبحث الأول

## حقيقة الإيمان

سلك " سبينوزا " فى تعريف الإيمان مسلكاً إلحادياً ، أخرج به الإيمان من النظر إلى العمل ، أى من كونه اعتقاداً من نوع مخصوص يتطلب منهجاً مخصوصاً ، إلى كونه سلوكاً عملياً ينحصر فى نوع معين من الأعمال بغض النظر عن جوهر الاعتقاد .

وقد عرف سبينوزا الإيمان قائلاً : " الإيمان أنه ننسب إلى الله بالفكر خصائص يؤدى الجهل بها إلى ضياع الطاعة "[1] .

هكذا عرف سبينوزا الإيمان ، وقبل أن نوضح التعريف ـ عنده ـ نود أن نشير إلى شيء مهم فى تعريفه للإيمان حتى لا ينخدع به أحد ، وهو اعترافه بالإله فى التعريف .

فإذا كان سبينوزا يعترف بالإله ، فإنه لا يعرف الإله إلا على أنه هو والطبيعة شيء واحد ، فالظواهر الكونية كلها تصدر عن الله ، ولذلك استقر مذهب وحدة الوجود فى فلسفته ، وقد أداه هذا المذهب إلى إنكار أبسط ما تقره قواعد الأديان "[2] .

أما تعريفه للإيمان فالذى يفهم منه أن يكون عندنا عن الله بعض الأفكار التى يحتم وجودها أو معرفتها وجود الطاعة ، فهى ليست مجرد أفكار مطلقة ، وإنما هى أفكار عملية بالعلم بها توجد الطاعة وبالجهل بها تضيع الطاعة .

وقد يظن ظان أن سبينوزا لم يهمل الجانب النظرى حيث إنه ربط بين الفكر والطاعة فى حقيقة الإيمان ، ولكن سرعان ما يزول هذا الظن عند بيان مراده من الطاعة .

فلو نظرنا إلى الطاعة التى أوردها فى التعريف لوجدنا أنه جعلها سلوكاً عملياً بعيداً عن أى تقديس للإله ويظهر ذلك من قوله :

---

(١) رسالة فى اللاهوت والسياسة لاسبينوزا ص ٣٥٧ ترجمة وتقديم د/ حسن حنفى ط/ دار وهدان .

(٢) ينظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ١٩٦ ـ ١٩٧ د/ توفيق الطويل ناشر مكتبة مصر ط ٢ وينظر تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٢٠ وينظر المحور الثالث من الجمعية الفلسفية المصرية ص ١٧٧ .

" والواقع أن الإيمان الشامل لا يحتوى إلا على عقائد تحث على طاعة الله على نحو مطلق ، ويؤدى الجهل بهما إلى أن تستحيل الطاعة تماماً ، أما الجوانب الأخرى للعقيدة ، فإن لكل فرد ـــ ما دام هو خير من يعرف نفسه ـــ أن يتصورها كما يشاء، بحيث يتسنى له أن يسلك على خير نحو ، طبقاً للحب والعدل "[1] .

فمعرفة الله عنده بالفكر فى حب العدل والإحسان ، وهذا إيمان.

وأما الخصائص فى التعريف فهى بمعنى عقائد أو مبادئ أو صفات ، وهى أيضاً خصائص عملية لما أدى الجهل بها إلى ضياع الطاعة ـــ التى هى سلوك عملى ـــ فهى عنده لا تخرج عن العدل والإحسان بدليل قوله عقب التعريف : " على حين أن وجود الطاعة يستتبع هذه الخصائص بالضرورة "[2] .

وبدليل جعله مبادئ الإيمان الشامل نحو الوجود الأسمى مبادئ عملية لاتخرج عن عبادته بممارسة العدل والإحسان وهى :

١ ـــ يوجد إله ، أى موجود أسمى ، خير ورحيم على نحو مطلق ، أى أنه بعبارة أخرى : نموذج للحياة الحقة ، فمن لا يعرفه أو يؤمن بوجوده لا يستطيع طاعته أو الاعتراف به حكماً .

٢ ـــ عبادة الله وطاعته لا تكون إلا فى العدل والإحسان ، أى فى حب الجار .

٣ ـــ لا يتم الخلاص إلا لمن يطبقون هذه القاعدة فى الحياة أى لمن يطيعون الله على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات ولو لم يعتقد الناس بذلك اعتقاداً جازماً لما كان هناك ما يدعوهم إلى إيثار طاعة الله على السعى وراء اللذات[3].

فمن الملاحظ أن هذه الخصائص أو المبادئ العملية جعلها سبينوزا مبدأ شاملاً للإيمان

---

(١) رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٣٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ .

(٣) رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٣٦٠ باختصار .

تصدر عن العقل المعبر عنه بالفكر وهى تستلزم بالضرورة وجود الطاعة المتمثلة فى وصية الله بحب الجار والإحسان والعدل .

## لكن هل يكون الإيمان بسلامة الاعتقاد فى الله ؟

يرى سبينوزا أن معرفة هذه الأمور ضرورية ، ففى رفض أحد هذه المعتقدات رفض لطاعة الله ، أما معرفة ما هو الله ، أى أنموذج الحياة الحقة ، فإن كونه ناراً أو روحاً ، أو نوراً أو فكراً .. الخ لا يمس الإيمان فى شىء ، فكل فرد ملزم بأن يهيىء عقائده فى الإيمان على قدر فهمه الخاص[1] .

ولا يتوقف سبينوزا عند هذا الحد ، بل إنه يتمادى فى تعويله على السلوك العملى حتى فى بيانه لنتائج تعريفه للإيمان ، والواصف له بأنه واضح للغاية لا يحتاج معة إلى شرح فيقول :

وسأحاول الآن باختصار أن أحصى نتائجه :

١ ــ يجلب الإيمان الخلاص لا بنفسه بل لأنه يتضمن الخضوع ، ويستدل بما جاء عن يعقوب : " الإيمان دون الأعمال مائت " .

٢ ــ يكون الإنسان المطيع حقاً هو صاحب الإيمان الحق ، ويقصد بذلك كما يقول هو ذلك الإيمان الذى يكون الخلاص ثمرة له[2] .

فمن خلال هذه النتائج والثمار نرى أن سبينوزا يقرر فيها أن الإيمان يجلب الخلاص لا بنفسه ، أى ليس بكونه اعتقاداً نظرياً ، وإنما بكونه عملياً يتضمن الخضوع الذى هو بعمل الطاعة كما يفهم من استدلاله بقول يعقوب السابق ، ويقرر أيضاً أن المؤمن الحق هو الطائع الحق لله بالمحبة والخضوع .

---

(١) المصدر السابق ص٣٦١ باختصار .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٨ .

" نقد المسألة " :

فى هذه الفلسفة الإلحادية من سبينوزا نرى أنه قصر الإيمان وهو يبين حقيقته على العمل دون النظر الذى هو الاعتقاد ، حيث إنه ترك الاعتقاد لحرية كل شخص فى حدود الطاعة ، وهذه الفلسفة لا يرضى عنها الدين الحق ، لأنها تجعل من أساسه وهو الإيمان وظيفة عملية إن صلحت لدنيا فهى لا تصلح لأخرى ، وذلك لأن الإيمان لابد فيه من مراعاة جانبيه النظرى والعملى ، فكما لا يتمكن من أراد قيادة طائرة أو سفينة من القيادة بقراءة كتب القيادة دون ممارسة عملية فكذلك الحال فى الإيمان لا يصح أن يقوم على عمل دون اعتقاد سليم .

ولهذا فإن هذه النزعة من سبينوزا قد عدت ثورة جامحة وتمرداً صارخاً على أوضاع الدين و " اتهم بالهرطقة عند اليهوديين والمسيحيين على السواء فقدم للمحاكمة ، وصدر حكم بتكفيره وحرمانه بعد أن عز على اليهود إسكاته بالرشوة "[1] .

وقد قيل إن سبب كتابة الرسالة اللاهوتية هو : " الثورة العنيفة التى قام بها الغوغاء من آل دى ويت بعد أن هزم الإنجليز الأسطول الهولندى ، إذ قيل إن دى ويت هو الذى جلب هذه الكارثة على الشعب الهولندى من جراء تسامحه فى الإباحية والإلحاد، ولقد عرف سبينوزا الإنجيل على أنه مصدر الحياة المعقولة وعقد النية على أن يبين أنه لا يميز قط أعمال العنف والتعصب ونشر الكتاب ولكن رجال اللاهوت سرعان ما أدانوه"[2] .

لذلك كله " أثار نشر الرسالة اللاهوتية ثائرة الأوساط الكنسية واللاهوتية، فشنت هجوماً عنيفاً على سبينوزا نظراً للوجهة الإلحادية للرسالة وردها الدين إلى التعاليم الأخلاقية "[3].

ومن هنا نقول إن ما عرف اسبينوزا الإيمان به لا يرضى عنه المسلمون ولا غير المسلمين" .

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة د/ توفيق الطويل ص١٩٩ نشر مكتبة مصر الطبعة الثانية بدون .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٨١ ط مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٣م .

(٣) تاريخ الفلسفة السياسية د/ علاء محروس ص ١٢٧ ط دار التعاون سنة ١٩٨٦م .

أما أهل الإسلام فلا يرضونه ، لأنه يختلف كل الاختلاف عن نظرهم إلى الإيمان فلم يقل أحد منهم بأن العمل وحده دون الاعتقاد كفيل بأن يصلح حداً وتعريفاً للإيمان، لأن الإيمان عند معظم أهل الإسلام تصديق بالقلب وإقرار باللسان ، وعمل بالجوراح ، ولا يكون العبد مؤمناً ـــ على الراجح ـــ بغير هذه الثلاث ، ولا خلاف بين أهل السنة أن الله أراد من العباد القول والعمل معاً[1] .

إذن فالاعتقاد عند أهل الإسلام لم يهمل ، وعلى ذلك فعندهم أن الإيمان دون الاعتقاد السليم مائت ، وليس كما يرى سبينوزا أنه دون الأعمال مائت ، فالإيمان الذى عرفه سبينوزا لا يتضمن الحقائق الأولية فى الإيمان مثل : وجود الله وكماله بمخالفته للحوادث ، والاعتراف بما أتت به الرسل ـــ عليهم السلام ـــ فى الجانبين النظرى والعملى معاً .

فتعريف سبينوزا للإيمان لا يرضى عنه أهل الإسلام ولا يعرفونه ، لأنه إيمان فقط بالتسمية ـــ يعنى ليس إيماناً حقيقياً ـــ وإنما بحسب فكره السقيم .

وأما عن عدم رضا غير أهل الإسلام عن تعريف سبينوزا للإيمان ، فلأن بعضهم عرف إيماناً ليس كإيمان سبينوزا المزعوم .

فمثلاً توما الأكوينى يرى أن حقائق الإيمان فوق العقل ، ولذا عرف الإيمان بأنه: "عمل العقل فى محاولته تصديق الحقيقة الإلهية بمقتضى الإرادة الحرة التى يحركها الفضل الإلهى "[2] .

فالإيمان عنده عمل ولكنه عمل من نوع خاص ، حيث إنه يكون فى جانب التصديق بمقتضى الإرادة الحرة المحركة بالفضل الإلهى ، وليس عملاً سلوكياً ينحصر فى الطاعة وما أدى إليها ـــ كما يرى سبينوزا فى قوله : " إذن فالإيمان لا يتطلب عقائد صحيحة بل عقائد تؤدى ضرورة إلى الطاعة"[3] .

---

(١) ينظر شرح الطحاوية ص ٤٦٢ .

(٢) الفلسفة العامة نظرة جديدة د/ أحمد عبد الحليم عطية ص ٥١ ط / دار قباء سنة ٢٠٠١م.

(٣) الرسالة اللاهوتية ص ٣٥٩ .

لأنه بهذا المعنى يكون إلحاداً لا إيماناً ، فعمل الأعمال دون اعتبار أو اعتقاد فى وجود الله وصفاته يسمى إلحاداً عملياً ، وهذا يذكرنا بقول باركلى : " الاعتقاد بالمعانى المجردة سبب قوى للإلحاد "[1] .

كذلك أوغسطين[2] يرى أنه " ليس الإيمان عاطفة غامضة وتصديقاً عاطلاً من الأسباب العقلية ، ولكنه قبول عقلى لحقائق ، إن لم تكن مدركة فى ذاتها كالحقائق العملية فهى مؤيدة بشهادة جديرين بالتصديق هم الرسل والشهداء ، وبعلامات خارقة هى المعجزات "[3] .

فمن هذا النص نعلم أن هناك فرقاً بين إيمان أوغسطين وإيمان سبينوزا ، فأوغسطين يرى أن الإيمان ليس تصديقاً عاطلاً ولا عاطفة غامضة وإنما هو القبول العقلى يعنى التصديق بكل الحقائق التى أخبر بها الرسل المؤيدون بالمعجزات .

وعلى ذلك فإيمان سبينوزا ليس إلا إيماناً زائفاً ، لأنه خلط بين السلوك المصاحب للإيمان السليم الكامل ، وبين أصل الإيمان ، أو الإيمان نفسه بعبارة أدق .

وليس ذلك فحسب ، بل إن المجمع الفاتيكانى الأول سنة ١٨٧٠ قد عرف الإيمان بأنه " فضيلة خارقة للطبيعة ترشدها وتساعدها النعمة الإلهية وتتمسك بمقتضاها بما هو صحيح كما أوحى به الله ، ليس لأننا أدركنا حقيقته الذاتية بواسطة عقلنا ، ولكن بسبب سلطة الله التى لا يمكنها أن تخدع أو تخدع "[4] .

فالمجمع الفاتيكانى هنا جعل الإيمان اعتقاداً يقوم على التمسك بما هو صحيح ليس بالفكر

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة د/ يوسف كرم ص ١٦٧ ط دار المعارف .

(٢) أوغسطين ( القديس ) ( ٣٥٤ ــ ٤٣٠ ) ولد فى طاجسطا من أعمال الجزائر من أبى وثنى وأم مسيحية ولقد أمضى حياته كلها فى البحث عن السعادة فكانت محور فلسفته وموضوعها ومن كتبه كتاب الثالوث وكتاب الاعترافات ورسالة فى خلود النفس راجع معجم أعلام الفكر الإنسانى لنخبة من الأساتذة ص ٧٥٣ وما بعدها . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط د/ يوسف كرم ص ٢٩ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥م .

(٤) الفلسفة العامة نظرة جديدة ص ٥١ .

ولكن بالوحى ، وهو تعريف يقوم على اعتبارين أحدهما : أن الله موجود وأنه أوحى بكل ما هو صحيح يجب التمسك بمقتضاه ، ولا شك أنه أوحى ــ لا سيما فى الإيمان ــ بقضايا جانبية النظرى والعملى معاً " " لأن الإنسان مفطور على الخير ولكن اهتماماته الدنيوية تصرف ذهنه عن أصله السماوى فيتمكن منه الشر والإيمان هو الذى يعيده إلى صفاء الفطرة والشريعة هى المرجع الأخير فى تقويم الأفعال وتلعب فكرة الثواب والعقاب فى الآخرة دوراً هاماً فى تأصيل الأخلاق الدينية"[1] .

فكل ذلك يرد قول سبينوزا فى حقيقة الإيمان لو تصالحنا معه على أن ما عرفه إيمان ، فكثير من النظريات الحديثة تتناول " الإيمان على أنه موقف إدراكى موجه نحو القضايا الدينية ، وقد انتشر التعريف العقلانى للإيمان بصورة كبيرة فى الدراسات الحديثة على أنه اعتقاد راسخ جداً سواء كان له ما يؤيده ، أم كان الدليل الذى يؤيده غير كاف "[2] .

فالإيمان اعتقاد راسخ ، لأنه لابد أن يشتمل أولاً وأخيراً على معرفة الله والخضوع لعظمته والاعتقاد فى كل ما أنزل من تشريعات عقدية أو تعاليم خلقية وغير ذلك .

لكن سبينوزا يريد مجتمعاً يجعل الطاعة وحدها إيماناً حتى ولو لم يعرف هذا المجتمع الله أو يعتقد فيه اعتقاداً سليماً ، ولأجل ذلك جاء حده للإيمان هكذا .

لكن الإيمان حقاً هو أن يؤمن المرء بالله أولاً ثم يفعل الطاعة ثانياً بإيمانه أو لإيمانه بالله ــ عز وجل ــ قال تعالى فى القرآن الكريم مقدماً الإيمان على الطاعة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3] فالمؤمن يؤمن أولاً ثم يطيع ثانياً وإلا لكانت طاعته بدون قيمة .

يقول الشيخ محمد الغزالى ــ رحمه الله ــ : " إن الأعمال الصالحة كلها ، نفسية كانت أو اجتماعية عندما تكون جزءاً من تعاليم الدين ، أو جزءاً من سلوك المؤمنين . تأخذ طريقها فى الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوى ، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل ، وتكون تقواه جل شأنه إحساساً دائماً مصاحباً . . . وقد علمت أن أى عمل أمر الله به ، فإنما الجدوى من فعله ابتداء طاعة الله، والقيام بحقه ، أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة

---

(١) الموسوعة الفلسفية د/ عبد المنعم الحفنى ص ٣٢ .

(٢) الفلسفة العامة نظرة جديدة ص ٥٢ ــ ٥٣ .

(٣) سورة الأنفال من الآية ٢٠ .

له ، وإن صلحت به إلى حين بعض شؤون الدنيا "[1] .

ولذلك فإن الإيمان عند أهل السنة عبارة عن التصديق والعمل معاً ، فالتصديق هو الإيمان بالله وهو الذى يدفع الإنسان للطاعة حتى يكون ـــ كما يرى الشيخ الغزالى ـــ مصطبغاً بالصبغة الإلهية ، وحتى تأخذ الأعمال طريقها فى الحياة مقترنة باليقين السماوى وهو تشريع الله فى دينه .

ومن هنا فحد سبينوزا للإيمان بهذا الحد أوقعه فى الخطأ بل فى الإلحاد ومخالفة أهل الإسلام عامة والبعض من غير المسلمين ، حيث إنه أنكر أو تجاهل اليقين السماوى بكل ما يشتمل عليه من أمور دينية يقوم عليها الإيمان .

ومن هنا نسأله إذا كنت ترى أن حقيقة الإيمان هكذا ، فما المقياس الذى تحكم به على إيمان الأشخاص ؟ وما هو الإيمان الصحيح وغير الصحيح أو الصادق أو الكاذب ؟ وهل هو نظرى أو عملى أو هما معاً ؟.

إجابة سبينوزا على هذه التساؤلات نلمسها فى المبحث الثانى إن شاء الله تعالى فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١٣٩ ـــ ١٧٠ باختصار . ط دار الدعوة الطبعة الثالثة سنة ١٤١١هـ ـــ ١٩٩٠م .

# المبحث الثانى

# الإيمان الصادق والكاذب

كما جعل سبينوزا الإيمان فى حقيقته منوطاً بالسلوك العملى فقط ، فإنه جعل السلوك العملى أيضاً مقياساً للإيمان ، من حيث صحته وبطلانه أو صدقه وكذبه ، فالإيمان الصادق الصحيح هو المشتمل على الطاعة بعيداً عن الاعتقاد ، لأن مسألة الاعتقاد عنده فيها حرية ــ كما سبق .

ولا يخفى أن الاعتقاد الذى يعول عليه سبينوزا فى الإيمان الصادق هو الاعتقاد المؤدى إلى الطاعة ، وليس الاعتقاد المؤدى إلى الاعتراف بوجود الله ــ مثلا ــ وعلى ذلك، فالاعتقاد المنطوى على الطاعة فإيمان صاحبه صادق ، والاعتقاد الخالى عن الطاعة فإيمان صاحبه كاذب ، وفى ذلك يقول سبينوزا :

" ... أنه لا يمكن الحكم على أحد بأنه مؤمن أو غير مؤمن إلا بأعماله ، فإذا كانت أفعاله حسنة مع اختلافه فى عقائده عن بقية المؤمنين فهو مؤمن ، وإذا كانت أفعاله سيئة واتفقت عقائده لفظياً مع الآخرين فهو غير مؤمن ، ذلك لأنه إذا وجدت الطاعة وجد الإيمان بالضرورة ، والإيمان دون الأعمال مائت "(١) .

ويقول أيضاً :

" ... وإذن فلا ينبغى الاعتقاد بأن الآراء فى ذاتها بغض النظر عن الأعمال تنطوى على أى قدر من الإيمان أو الكفر ، فنحن نقول عن الاعتقاد الإنسانى إنه ينطوى على إيمان أو كفر بقدر ما يحث المؤمنين على الطاعة أو يبيح لهم الخطيئة والعصيان، وعلى ذلك فإن من يصح اعتقاده ويعصى يكذب إيمانه ، وعلى العكس فإن من يخطئ فى اعتقاده ويطيع يصدق إيمانه "(٢) .

---

(١) رسالة اللاهوت ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٣ .

وفى الحقيقة إن سبينوزا هنا قد تأثر بفلسفات سابقة عليه تبعد الجانب النظرى عن كونه مقياساً لصحة أو بطلان الإيمان ، وترى أن المقياس الوحيد فى الإيمان الصادق والكاذب هو الطاعة أو المعصية .

فمثلاً جاء فى حكم " ماركس أورليسوس " " من يفعل السوء يكفر ، لأن الطبيعة الكلية خلقت الكائنات العاقلة بعضهم لبعض : ليعاونوا عند الحاجة لا ليضر بعضهم ببعض"[1] . فهو يؤمن بأن الطبيعة قد جمعت كل ما هو أخلاقى ويعود بالنفع على الفرد والجماعة معاً كما أن سبينوزا تأثر بفلسفة " بيل "[2] الذى " كان يسعى إلى تقديم فلسفة علمانية مستقلة عن مذهب الألوهية النظرى والوحى الدينى على السواء "[3] .

## " نقد المسألة وتقويمها " :

إن المقياس الذى وضعه سبينوزا لمعرفة المؤمن من الكافر أو صادق الإيمان من جهة وكاذبه من جهة أخرى ، مقياس زائف وربطه بالطاعة أو العمل ليس إلا ذراً للرماد فى العيون ، ومن ثم فإن الإسلام يأباه ويلفظه .

والفرق بين الجانبين ــ أعنى الإسلام وفلسفة سبينوزا حول مقياس الإيمان ــ أن الإسلام لم يهمل قيمة العمل الصالح بكل شعبه ، بل عول عليه فى الإيمان ، لكنه ربط بين العمل الصالح وأصل الإيمان الذى هو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله وفق ما أخبر به الوحى، ومن رجع إلى القرآن الكريم أدرك أنه " ما من آية فى كتاب الله ذكرت الإيمان مجرداً ، بل عطفت عليه عمل

---

(١) فلسفة الحضارة لألبرت اسشفتيسر ص ١٧١ ترجمة د/ عبد الرحمن بدوى ط/ دار الأندلس الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م .

(٢) بيل ( ( بيير ) سنة ١٦٤٧ ــ ١٧٠٦م فيلسوف تونسى درس الفلسفة فى مدينة كولوز بفرنسا وهو أول من حاول فى عصر التنوير جمع المعارف العلمية الجديدة فى مؤلف واحد وجعلهما فى متناول الجمهور . راجع معجم أعلام الفكر الإنسانى ص ١٥٠٢ .

(٣) الله فى الفلسفة الحديثة لجيمس كوليتر ص ١١٨ ترجمة د/ فؤاد كامل نشر دار قباء الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨م .

الصالحات أو تقوى الله ، أو الإسلام له بحيث أصبحت صلة العمل بالإيمان أصرة لا يعروها وهن ، فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال جعل الإيمان والعمل جميعاً فى كفة وجعل الكفر فى الكفة الأخرى[1] .

وعند سبينوزا الأمر يختلف ، فهو لا يرى كفراً بقول أو فعل إلا ما كان تحت طاعة أو معصية ، أما الإيمان والكفر بالاعتقاد الدينى المعروف فلا يدخل فى إطار فلسفته هذه ، فإذا كان الرأى أو الفعل حسناً فلا يضر المعتقد ، لأن الإيمان صادق وإذا كان الرأى أو الفعل قبيحاً فلا ينفع المعتقد ، لأن الإيمان كاذب .

وهنا نختلف مع سبينوزا فى قوله بأن الآراء فى ذاتها بغض النظر عن الأعمال لا تنطوى على أى قدر من الإيمان أو الكفر ، حيث إن الإيمان والكفر معنيان خاصان بالعقائد الدينية ـــ فى الغالب ـــ لكن السلوك العملى أو الأخلاقى له معنى آخر كالحسن أو القبح مثلاً ، فكان الأولى أن يعبر بهما بدلاً من الإيمان والكفر .

فكيف يكون صاحب الفعل الحسن ـــ كما يرى هو ـــ مكذباً بالله ورسله ونخلع عليه وصف الإيمان ؟

وكيف يكون المؤمن بالله وبما أرسل به رسله ووقع منه الخطأ عمداً أو سهواً بطبيعته البشرية فى عداد الكافرين وكاذبى الإيمان ؟

إن ما نتفق عليه مع سبينوزا هو حرية المعتقد ، فلا يحق لأحد أن يكره أحداً على اعتناق اعتقاد معين ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وقد قال الله ـــ عز وجل ـــ لنبيه ﷺ ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[2].

ومما لا شك فيه " أننا نحس باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع فى دائرتهما ، وكان يكفى هذا الإحساس دليلاً على حريتهما لولا أن هناك من يزعم أن الإحساس

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١٤٩ .

(٢) سورة يونس من الآية ٩٩ .

يكذب أحياناً ، ولكننا نطمئن إلى صدق هذا الإحساس ونكذب ما يغض من قيمته بعد أن نرجع إلى القرآن الكريم نستفتيه فى ذلك ، ونحن نجد القرآن يؤكد هذا الإحساس البديهى ، وينوه بحرية الإرادة الإنسانية " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر "[1] ولا يخليها من المسئولية الواضحة على ما يصدر منها : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.﴾ .

بل إن طبيعة الدين ــ وهى التكليف والابتلاء ــ لا تتحقق البتة مع استبعاد الإرادة وتقيدها ، وإيقاع الجزاء كذلك لا يتوجه إلا فى هذا الجو الطلق الفسيح "[2].

وهذا هو الفارق بين الدين الإسلامى المتكامل وبين نظرة هذا الفيلسوف العلمانية التى تفصل الأخلاق العملية عن الاعتقاد ، فالحرية عنده لا يترتب عليها مسؤولية .

فإذا كان سبينوزا يقصد بقوله:" إذا وجدت الطاعة وجد الإيمان بالضرورة " الإيمان الذى عرفناه من الوحى ، فإنه يكون قد جانبه الصواب ، لأنه إيمان خلا من المسؤولية ــ كما سبق ــ والحق خلاف ذلك ، فـ " الإيمان المعتبر هو ما اقترن بالسمع والطاعة وتطهر من الجحود والاستكبار عن أمر الله "[3] .

وعلى ذلك فالمعاصى لا تزيل الإيمان كلية ــ باستثناء معصية الشرك عياذاً بالله تعالى ــ ومن هنا فقول سبينوزا : " لا يحكم على أحد أنه مؤمن أو غير مؤمن إلا بأعماله " لا يطلق على عواهنه .

ولا يفهم من ذلك أنه لا صلة للإيمان بالطاعة أو المعصية ، فبلا شك أن الطاعة تزيد الإيمان وتقويه ، والمعصية تنقصه وتضعفه، فالطاعات للإيمان زائنة والمعاصى للإيمان شائنة ، ومرجع ذلك كله إلى الوحى .

---

(١) سورة الكهف من الآية ٢٩ .

(٢) عقيدة المسلم ص ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

لذلك كان يجدر باسبينوزا أن ينعت الإيمان المصحوب بالطاعة أو الخالى عنها بوصف غير الصادق والكاذب فبنعته مثلاً بالكامل أو الناقص ، لأن الإيمان وهو عقيدة دينية ليست الطاعة المجردة هى دلالته الوحيدة ، فكما يقول اللاهوتيون " إن دلائل الوحى هى الدلائل الوحيدة على العقائد الدينية الفائقة للطبيعة ، وإن النعمة الإلهية هى الوسيلة الوحيدة للإيمان "(١) .

" ولقد اهتم المؤلهون الطبيعيون اهتماماً ملموساً بالأخلاق أكثر من اهتمامهم باللاهوت ، ولكنهم استمروا يؤمنون بأن السلوك الصحيح يعتمد على الإيمان الصحيح"(٢).

وعلى ذلك فإيمان سبينوزا يفتقد دلائل الوحى ومن ثم فليس إيماناً صحيحاً، لأنه لا ينم ــ أولاً وأخيرا ــ إلا عن عدم المبالاة بالدين .

لذلك فإنى أرى أن السلوك العملى وحده لا يصلح مقياساً للإيمان وتحديد الصلة بين العبد وربه فى غضون ما أتت به الرسل والأنبياء عليهم السلام .

ومن ثم فإن سبينوزا لم يعرف الإيمان بحقيقته الموضوعية الخالصة ، وإنما عرف إيماناً علمانياً لا معنى حقيقياً له ، بدليل قوله " ... وأن تكون الأعمال وحدها مقياس إيمان كل فرد باتفاقهما أو اختلافهما مع التقوى "(٣) .

فالأعمال لا تكون مقياساً إلا لكمال الإيمان باتفاقها مع التقوى ، أو نقصانه باختلافها مع التقوى ، وأن الطاعة لا تقبل إلا بالإيمان كما يرى أهل الإسلام " .

فقد " ينظر إلى الإيمان على أنه وصف يلحق الأعمال ، ويطرأ على السلوك الإنسانى المعتاد ، فيصلحه ويصله بالله ، فيذكر العمل أولاً كما هى مرتبة وجوده ، ثم يذكر الإيمان ثانياً على أنه شرط صحته وقبوله "(٤) .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٩٧ .

(٢) الفكر الأوربى الحديث الاتصال والتغيير فى الأفكار ص ٦٥ .

(٣) الرسالة اللاهوتية ص ١١٩ .

(٤) عقيدة المسلم ص ١٤٩ .

فما أسماه سبينوزا إيماناً لا يحدد إلا علاقة الإنسان بالإنسان لا علاقة الإنسان بالله ـــ عز وجل ـــ فموقفه هذا أشبه بموقف بيل الذى " يسلم بإمكان مجتمع ملحد ولكنه مستقيم من الناحية الأخلاقية وإن حكم الدين بعدم جدارته بشرط أن تحكمه قوانين عادلة صارمة "[1] .

ويتأكد هذا التشابه أيضاً بقول سبينوزا نفسه :

" أن الإيمان يتطلب عقائد تحث على التقوى وقادرة على توجيه معتنقيها إلى الطاعة أكثر ما يتطلب عقائد صحيحة ، ولا يهم بعد ذلك ألا يكون العدد الأكبر من هذه العقائد محتوياً على ذرة واحدة من الحقيقة " .

وقوله " إن حب العدل والإحسان يكفى ليكون الإنسان مؤمناً ".

وقوله أيضاً : " ... وإذن فلما كان علينا كيما نحكم على تقوى كل إيمان أو فسوقه ، ألا نأخذ فى اعتبارنا سوى طاعة من يعتنق هذا الإيمان أو عصيانه بغض النظر عن صحة الإيمان أو بطلانه"[2] .

فكل هذه النصوص تؤكد إقامة سبينوزا مثل سابقه : بيل مجتمعاً ملحداً دينياً مستقيماً من الناحية الأخلاقية أو السلوكية العملية، وهو أيضاً لا يختلف عن فرنسيس هاتشيون[3] فى إبعاد الحس الخلقى عن الدين فالأخلاق قائمة بذاتها مستقلة عن الدين والتجربة [4] .

وقد فاتهم جميعاً " أن الاعتقاد بالله إذا كان مرجعه إلى تقدير أثره فى حياة صاحبه دون اكتراث بحقيقة الإيمان من الناحية الموضوعية الخالصة ، كان هذا الاعتقاد احتيالاً وضلالاً ، وما أصدق بر تراندرسل فى قوله : " إن المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح الى موضوع لعبادته وإيمانه ،

---

(١) الله فى الفلسفة الحديثة ص ٢٩٣ .

(٢) الرسالة اللاهوتية ص ٣٥٩ .

(٣) فيلسوف إنجليزى من مواليد سنة ١٦٩٤ ، نشر عدة كتب فى الأخلاق أهمها كتاب الفحص عن أصل معنى الجمال والفضيلة ، وانتهى إلى أن الأخلاق قائمة بذاتها ومستقلة عن الدين والتجربة ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٥٩ .

(٤) ينظر تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٥٩ .

إن المؤمن لا يقول : " إني إذا آمنت بالله سعدت ولكنه يقول : " إني أؤمن بالله ، ومن أجل هـذا فأنا سعيد ، فالسعادة في نظره ليست عله إيمانه ، ولو لم يكن لموضوع إيمانه وجود ، وإنما هي ثمرة الإيمان بمعبود لا يشك مؤمن في وجوده "[1] يعني أن إيمانه علة سعادته .

فاسبينوزا جعل الأخلاق تحل محل الإيمان الديني ، كما جعل شبل شميلي[2] العلم يحل محل الدين ، فرفض الدين باعتباره أداة لحياة البشر ، وحقيقة الأمر غير ذلك لأن الاتجاه الإسـلامي يرى أن الإيمان وحده هو العنصر المؤثر الفعال في كل ما يريد الإنسان أن يحققه من معان نبيلـة ، فالإيمان هو الذي يحقق له السعادة الحقيقية ، وكذلك النفس فسكينتها وهدوءها ورضاها ونجاتهـا من الحيرة والشك والقلق إنما يتحقق بالإيمان والرضى . والأخلاق الاجتماعية الفاضلة لا تكون إلا على أساس من الإيمان ، وكذلك التضحية والثبات والقوة والرحمة والصلاح وتربية الوجدان تؤدي إلى آثار في النفس والمجتمع كثيرة جداً "[3] .

فما ذهب إليه سبينوزا من جعل الأعمال وحدها هي مقياس الإيمان والكفر اتجاه مرفوض لا يتوافق مع عقيدتنا الإسلامية النقية من كل إفراط وتفريط فهي التي جعلت مقياس الإيمان والكفـر هـو الاعتقاد والتصديق بكل ما أتت به الرسل عن الله ـ عز وجل ـ وهذا هو ما يفتقده سبينوزا .

وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا عمل سبينوزا في دعوة الأنبياء ـ عليهم السلام وفي تعاليم الكتاب المقدس لا سيما وأنه يهودي ؟ .

---

(١) فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها د/ توفيق الطويل ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ نشر دار الثقافة الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٩م .

(٢) الشميل شبلي من كفر شيما ـ لبنان ١٢٦٦ هـ ـ ١٨٥٠م مفكر طبيب عالم طبيعي ، ومصلح اجتماعي لبناني من مؤلفاته النشوء والارتقاء ، والحقيقة موسوعة أعلام الفلسفة ج٢ /ص ٣٩ ، ٤٠ . ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

(٣)

# المبحث الأول

# السلوك العملى فى دعوة الأنبياء

رأينا فى الفصل السابق فكر سبينوزا حول قضية الإيمان وإخراجها من كونها معتقداً نظرياً وعملياً إلى جعلها سلوكاً عملياً بعيداً كل البعد عن كونه معتقداً مقدساً، وهاهو الآن يعيد الكرة فى دعوة الأنبياء تأكيداً لما يراه ، فهو يرى أيضاً أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ لم تخرج دعوتهم عن كونها سلوكاً عملياً يدعو الناس إلى العدل والإحسان واعتبرهما قاعدة للسلوك فى حياتهم العملية ، وأنهما ــ أعنى العدل والإحسان ــ الجانب المعتبر فى دعوة الأنبياء ، وما سواهما كالاعتقاد مثلاً لا عبرة به ، ويظهر ذلك من قوله :

" ... وأن أقوال الأنبياء لا يكون لها وزنها إلا على مسلك الناس فى الحياة والفضائل الخلقية ، وفيما عدا ذلك لا تهمنا معتقدا انهم الخاصة "(١).

وقوله : " أن آراء الأنبياء فيما بينهم كانت تختلف بل وتتعارض ، وكذلك الحال فى أحكامهم المسبقة ، ويحدث ذلك فى الأمور النظرية فحسب ، أما بالنسبة إلى الأمانة وحسن الأخلاق ، فلابد من الحكم على الأمر بطريقة أخرى ، وأننى لأصر على ما أقول لاعتقادى بالأهمية البالغة لهذا الموضوع وأن النبوة لم تجعل الأنبياء أكثر علماً بل تركتهم لآرائهم التى كونوها سلفاً ــ، ومن ثم نكون فى حل من تصديقهم فيما يتعلق بالأمور النظرية الخالصة "(٢) .

فمن هذين النصين نعلم أن سبينوزا يجعل من دعوة الأنبياء دعوة علمانية، بينما وبين الحكمة الأساسية من إرسالهم آماد بعيدة ، حيث إنها تجعل منهم قادة شرف وأمانة ، لا مؤسسى اعتقاد يترتب عليه ثواب وعقاب ، وبذلك لا يكون للأنبياء ــ عليهم السلام ــ ميزة عن غيرهم ــ بدليل أنه يرى أن النبوة لم تجعل الأنبياء أكثر علماً، بمعنى أن علمهم وفق فهمهم ، لأنهم بشر كسائر البشر ، وهذا الجانب هو المعتبر فى أقوالهم ودعوتهم ، أما الجانب العقدى فلا وزن له ، لأنه

---

(١) الرسالة اللاهوتية ص ١١٧ .

(٢) الرسالة اللاهوتية ص ١٥٦ بتصرف يسير .

جانب نظرى ، ومن ثم فكل فرد فى حل من تصديقهم فيه .

لذلك كله قرر سبينوزا أن " ما ناله الأنبياء من ثناء وتقدير عظيمين لا يرجع إلى مزايا روحية عالية ، بل إلى تقواهم ورسوخ إيمانهم "(١) .

فموقف سبينوزا هنا يشبه موقف بيير شارون " ١٥٤١ ــ ١٦٠٣ " فى كتابه عن " الحكمة " سنة ١٦٠١ عندما قرر " أن الأخلاق أسمى من الدين الموحى به ويمكنها أن تستقل بنفسها عنه دون أن تفقد شيئاً من جوهرها أو عمقها " (٢).

ولم يقف سبينوزا عند هذا الحد فى حصر دعوة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ فى السلوك العملى فقط ، بل إنه أيضاً فى سبيل تمسكه بالحياة العملية جوز على الأنبياء عليهم السلام أن يجهلوا الموضوعات النظرية ولا يعطوا إلا الحقائق العملية .

ويوضح ذلك قوله : " أن الوحى الذى أرسله الله كان يتغير وفقاً لفهم الأنبياء وآرائهم ، وأن الأنبياء كان يمكن أن يجهلوا ، بل وجهلوا بالفعل تلك الموضوعات النظرية الخالصة التى لا تتعلق بالإحسان وبالحياة العملية ... والنتيجة التى ننتهى إليها إذن هى أننا لسنا ملزمين بالإيمان وبالأنبياء إلا فيما يتعلق بغاية الوحى وجوهره"(٣).

فمن هذا النص يتأكد القول بأن سبينوزا يجوز على الأنبياء أن يجهلوا بالأمور النظرية ، لأنه يرى أن الأنبياء يكيفون الوحى حسب آرائهم ، ومن ثم فإن آراءهم فى الأمور النظرية تتضارب وتتعارض، حتى غاية الوحى وجوهره التى يلزمنا الإيمان بهما لو بحثنا عنها لرأينا أنها عملية وما سواها من الأمور النظرية فكل فرد يستطيع أن يؤمن بما يشاء بحرية تامة .

دعوة الأنبياء إلى المعرفة العملية :

---

(١) رسالة اللاهوت والسياسة ص ١٥٨ .

(٢) فلسفة الحضارة ترجمة د/ عبد الرحمن بدوى ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٣) الرسالة اللاهوتية ص ١٦٨ .

وفى جانب المعرفة أيضاً نرى أن سبينوزا يقرر أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ لم يدعوا إلى معرفة الله بالحقيقة ، وإنما دعوا إلى معرفة تتصل بما يعتبر قاعدة للسلوك العملى ، وهى الصفات الإلهية التى يتخذ الناس منها قاعدة عملية لحياتهم، وفى ذلك يقول سبينوزا :

" ... وأن المعرفة الوحيدة التى طلبها الله من جميع الناس بلا استثناء على لسان الأنبياء والتى لا يمكن إعفاء أحد منها ، هى معرفة العدالة الإلهية والإحسان الإلهى"(١) .

ويستدل سبينوزا على ذلك بقول أرميا ( ٩ : ٢٤ ) : " فليفتخر المفتخر بأنه يفهم ويعرفنى أنا الرب المجرى الرحمة والحكمة والعدل فى الأرض ، لأنى بهذه ارتضيت"(٢).

فكأن الأنبياء على لسانه لم يدعوا إلا إلى عدل الله وإحسانه فقط ، ويعتبرهما المعرفة الصحيحة الحقة .

فمثلاً بنى إسرائيل لم يعرفوا حقيقة الله ــ تعالى ــ على لسان نبى الله موسى عليه السلام ــ وإلا لما عبدوا العجل ، وفى ذلك يقول:

" ومع أن الله كشف عن نفسه لموسى فإن الإسرائيليين لم يعلموا عنه شيئاً يذكر" وقد ظهر ذلك بوضوح عندما عظموا العجل وعبدوه بعد بضعة أيام ، معتقدين أن العجل هو هذه الآلهة التى أخرجتهم من مصر ، إن من الواجب قطعاً ألا نعتقد أن أناساً غارقين فى خرافات المصريين أعنى أناساً أجلافاً أنهكتهم شقاء العبودية قد عرفوا الله معرفة صحيحة ، أو أن موسى قد علمهم شيئاً أكثر من قواعد السلوك فى الحياة" ولم يعلمهم ذلك كفيلسوف ، بحيث يستطيعون أن يحيوا سعداء بفضل تمتعهم بالحرية الكاملة، بل علمهم كمشرع بحيث تدفعهم طاعة أوامر الشريعة إلى مثل هذه الحياة، وهكذا فإن قاعدة السلوك التى تؤدى إلى الحياة السعيدة أى إلى الحياة الحقة ، وإلى حب الله وعبادته كانت بالنسبة إليهم عبودية لا حرية حقيقية أى نعمة وفضلاً إلهياً " (٣).

---

(١) رسالة اللاهوت والسياسة ص ٣٤٩ .

(٢) نقلاً عن رسالة اللاهوت والسياسة ص ٣٥٢ .

(٣) رسالة اللاهوت والسياسة ص ١٦٤ .

فمن هذا النص الذى آثرنا ذكره كاملاً تتأكد القضية وهى أن سبينوزا جعل المعرفة على لسان الأنبياء معرفة عملية سلوكية فقط آخذاً من عبادة بنى إسرائيل للعجل دليلاً على ذلك ، وأن موسى عليه السلام ــ وهو المشرع لم يعلمهم شيئاً أكثر من قواعد السلوك فى الحياة .

ثم يذكر سبينوزا عن يوحنا أنه لم يذكر عن الله إلا إحسانه ، لأن الله لا تدركه أبصار الخلق جميعاً ، وانتهى من ذلك إلى أن من يعمل الإحسان هو وحده الذى يدرك الله حقيقة وهو الذى يعرفه[1] .

ثم بعد ذلك ينص على تمسكه بالسلوك العملى وحده فى دعوة الأنبياء قائلاً :

" وهكذا يرى أرميا وموسى ويوحنا أن معرفة الله التى يلتزم بها كل فرد ينحصر فى عدد قليل جداً من الصفات هى أن الله عادل عدلاً مطلقاً ورحيم رحمة مطلقة أى أنه النموذج الفريد للحياة الحقة"[2].

وكل ذلك ، لأنه يرى أن الوحى يتغير بحسب فهم الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ومن ثم فإنه يتضارب ويتناقص فى النواحى النظرية، أما فى نواحى السلوك العملى فإنه ليس كذلك ، ولذلك هى التى عليها المعول عنده فى الإيمان ــ كما مر ــ أما النواحى النظرية فهى متروكة لحرية كل فرد فى قبولها أو ردها

## نقد المسألة وتقويمها :

لا يجادل منصف فى أن سبينوزا بفلسفته هذه حول دعوة الأنبياء ــ عليه السلام ــ وقصرها على الجانب العملى فقط ، قد أفقدها وزنها ، وضيع هدفها وجوهرها الأسمى ، فليست دعوة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ بمعزل أبداً عن الدعوة إلى الاعتقاد الحق فى الله ــ عز وجل ــ وإلا لما عاداهم أحد من أقوامهم فالثابت أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ قد تعرضوا للإيذاء ، والقتل أحياناً بسبب حرصهم على القضاء على المعتقدات الفاسدة والعبادة الباطلة .

---

(١) ينظر المصدر السابق ص ٣٥٢ .

(٢) الرسالة اللاهوتية ص ٣٥٣ .

وفى ذلك يقول العقاد : " إنهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقاً لا يسهل تذليلها ، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاماً وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصوراً بعد عصور "(١) .

ويقول أمين الخولى : " يمتازون بأنهم مصادر عقيدة ومنبع إيمان ، لا يؤمنون وأصحاب عقيدة فحسب، إنهم الذين يعلمون الناس الإيمان ويمنحونه قلوبهم ويفيضونه على أرواحهم "(٢) .

العقل والواقع يكذبان ما يدعيه سبينوزا من أن دعوة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كانت تتعلق بالإحسان والأمور العملية فقط ، وإلا فكيف يبرر سبينوزا إيذاء من أوذى أو إخراج من أخرج أو إحراق من أرادوا إحراقه ، أو قتل من أرادوا قتله من الأنبياء عليهم السلام ؟ .

و " إننا نحن المسلمين إذ نعتقد أن دعوة الأنبياء عليهم السلام شملت الجانبين النظرى والعملى لا نجد مصدراً نعتمد عليه سوى القرآن الكريم الذى حفظه الله من التغير والتبديل ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣).
وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٤).

وهناك الكثير من الآيات والأخبار التى تدل على أن دعوة الأنبياء شملت الجانبين النظرى والعملى وإلا لما كانت دعوة متكاملة.

لذلك كان من الأولى باسبينوزا ــ وهو يتحدث عن دعوة الأنبياء ــ أن يكون منصفاً حتى مع كتابه المحرف " التوراة " وأن يربط بين الجانبين النظرى والعملى حيث إن كلاهما لا ينفك عن الآخر، وقد عرفنا ذلك نحن أهل الإسلام من نبينا ﷺ عندما قال عن الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فهو تأويل قوله تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان "(٥).

---

(١) حياة المسيح ص ٣٦ ، ٣٧ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢ م .
(٢) من هدى القرآن ص ٣٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م .
(٣) سورة الأنبياء من الآية ٢٥ .
(٤) سورة النحل من الآية ٣٦ .
(٥) ينظر بلوغ السول فى مدخل علم الأصول للعلامة الشيخ محمد حسين مخلوف ص ٧٥ ــ ٧٦ ط مصطفى البابى الحلبى ــ الطبعة الثانية .

ولقد كذب سبينوزا عندما زعم أن آراء الأنبياء كانت تختلف وتعارض فى الأمور النظرية ، ومصدر كذبه إما عقله السقيم أو كتابه المحرف وكلاهما مردود ، لأنه يخالف ما تعلمناه من الإسلام فقد علمنا الإسلام أن رسالات الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كلها واحدة فى الأصول قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[1] كما علمنا الإسلام أنه يجب الإيمان بهم جميعاً والتأدب معهم جميعاً من لدن آدم إلى سيدنا محمد ــ عليه السلام ــ لأن " الطعن فى أى نبى ، طعن فيهم جميعاً ، وذلك أن الرسالات كلها عقد واحد نظامه الدعوة إلى الله وهداية البشر إلى أقوم الطرق ، وأن الأنبياء جميعاً أخوة فى أسرة واحدة، وإن كان الله مرسل بعضهم على بعض "[2].

كما كذب سبينوزا عندما زعم أن ما ناله الأنبياء ــ عليهم السلام ــ من ثناء وتقدير عظيم " لا يرجع إلى مزايا روحية عالية ، بل إلى تقواهم ورسوخ إيمانهم ، وإلا فماذا يقصد بالمزايا الروحية العالية ؟ وماذا يقصد بالتقوى ورسوخ الإيمان ؟ فهل تخرج التقوى ورسوخ الإيمان عن المزايا الروحية العالية ؟ .

وإلا فليثبت لنا حتى بعقله السقيم أن نبياً من الأنبياء ــ عليهم السلام ــ اتهم فى اعتقاده وعبادته؟

إن ما يجب أن يعلمه سبينوزا أو أقرانه أن " هؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخلق ، هم الصفوة المختارة من عباده ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[3]. وقال بعد ذكر جماعة من الأنبياء : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾[4]. وكان الرسل مصطفين وأخياراً ، لأنهم حملة أكرم رسالة ، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر ، ولأنهم فى مقام القادة والهداة ، ولا يقصد القوم إلا أكملهم ، وأرفعهم فى هذه المهمة بالذات[5].

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٩٢ .

(٢) المصطفون الأخيار للشيخ عطية صقر ص ٤٣ مطبعة الدار المصرية.

(٣) سورة الحج من الآية ٧٥ .

(٤) سورة ص من الآية ٤٧ .

(٥) المصطفون الأخيار ص ١٢ .

ومن ثم فإن ما ناله الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ من ثناء وتقدير يرجع لابـــد إلى مزايـــا روحية عالية وتقوى ورسوخ إيمان ، لأنهم أكمل وأشرف وأفضل الخلق .

لذلك فإني أعجب أشد العجب عندما زعم سبينوزا أن الأنبياء ـــ علـــيهم الـــسلام ـــ جهلوا بالفعل تلك الموضوعات النظرية التي لا تتعلق بالإحسان والحياة العمليـــة وأرى أن ذلـــك لخياله السقيم الذي صور له الخيال في الوحي للأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ ومن ثم زعم أننا لـــسنا ملزمين بالإيمان بالأنبياء إلا فيما يتعلق بغاية الوحي وجوهره الذي حصره في الـــسلوك العملـــي للحياة ، فأنكر بذلك المهمة الكبرى التي من أجلها أرسل الله الرسل والأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ وهي إفراد الله سبحانه بالعبادة وتعريف الخلق بخالقهم ـــ جل وعلا ـــ وقد جهـــل ســـبينوزا أو تجاهل أن الإيمان عندما يتمكن "من القلب يصبح عقيدة يكون لها أثرها في النفس فتصبح قوة تدفع إلى العمل ورقيباً يساعد على الإتقان والإجادة ودليلاً يهدي من الضلالة ويقي من الزلل قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ .

ويكون لها أثرها أيضاً في الحكم على سلوك الإنسان ومعاملة الناس له ، كما أن لها أثرها في الآخرة في " دخول الجنة "[1] .

وبذلك يبطل ما ألزم سبينوزا نفسه بالإيمان به وجعله غاية وجوهراً للـــوحي لأن ذلـــك سلبي وضيق أفق .

فهي دعوة سلبية لأن المجتمع لا يكون متكاملاً إلا بالتسليم للأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ في كل ما أتوا به ، لا تأخذ بجانب وتهمل آخر وندعي احتيالاً أن لنا الحرية فيه كما نشاء .

ودعوة تدل على ضيق أفقه ، لأنها مصحوبة بهوى النفس المؤدي إلى إخفـــاء الحـــق أو نكرانه .

لذلك فأنا أدعوه وأمثاله إلى مجتمع متكامل جمع بين الجانبين وجعلهما عاملاً أساســـياً في

---

(١) قضية الإيمان والكفر لنخبة من كبار المفكرين وعلماء الإسلام ص ١٧ ـــ ١٨ سلسلة قضايا إسلامية صـــفر سنة ١٤١١هـ ـــ ١٩٩٠م أغسطس .

تكوينه ، فأصبح بذلك جديراً بالاتباع ، إنه المجتمع الإسلامي ، وفي ذلك يقول الدكتور " البهي ":

" إن هدف المجتمع الإسلامي والعامل الأساسي في تكوينه هو الوحدة في الإيمان بالله وكذلك الخلقية الدينية الإسلامية ، عامل من عوامل تماسكه وتعاونه .

والخلقية الدينية هي : استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله يصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع تعاليم الرسالة التي جاء بها صاحب الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي إذن كما تقوم على وحدة الإيمان بالله تقوم أيضاً على الإيمان برسالة الرسول وما جاء فيها .

وهناك عامل آخر في تكوينها يضاف إلى هذين العاملين وهو الإيمان بالجزاء في الآخرة ، حيث إنه يبعث الحيوية واليقظة باستمرار في أن تؤدي الخلقية الدينية وظيفتها طبق ما آمن به الإنسان .

وهذه الخلقية الدينية التي تقوم على عناصر الإيمان الثلاثة هي التي تدفع الإنسان إلى حسن السلوك والاستقامة وإلى التعاون والتآخي بين الأفراد "[1] .

فقد تأكد القول إذن بسلبية الفلسفة الاسبينوزية حول قصر دعوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في الجانب العملي وإهمال الجانب النظري ونسبة الجهل به للأنبياء ـ عليهم السلام ـ فالمجتمع لا يكون متكاملاً متعاوناً إلا بهما وفق ما أخبر به الرسل .

وإذا ثبت القول ببطلان وسلبية الفلسفة الدينية لاسبينوزا حول حصر دعوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في السلوك العملي للحياة فقط وعدم التعويل على الجانب النظري ، فإنه يفسد أيضاً قوله بأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يدعوا إلا إلى المعرفة العملية ، لأنه بعيد عن فكره السقيم وكتابه المحرف ، نأبى قبول هذا الزعم ، فتاريخ الأنبياء حسب المصدر المعتمد وهو القرآن الكريم ـ كما سبق ـ يكذب ذلك فما من نبي ذكر الله قصة إرساله إلا صحبت بقوله " ألا

---

(١) الإسلام دين الإنسانية ص ٨٨ وما بعدها بتصرف ـ سلسلة دراسات إسلامية العدد ١٦ سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

تعبدوا إلا الله " والتى معناها " أرسلناه بألا تعبدوا إلا الله "[1] .

وذلك أن الدعوة إلى حسن الاعتقاد وهو ما يرفضه سبينوزا هى التى تنظم كل العلاقات حيث " إنها تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بالآخرين ، وهنا نقول : إن هذه كلها تترابط وتلتقى عن طريق المحور المشترك فيها جميعاً وهو الإيمان بالله وعبادته ، فعلاقة الإنسان بربه هى الإيمان والعبادة وعلاقته بنفسه هى تزكيتها، والتزكية تتم عن طريق الإيمان والعبادة ، وعلاقته أو علاقاته بغيره تتم كلها عن طريق تنفيذ أوامر الله والتحاكم إلى ما أنزل الله ، وبذلك تنتظم العلاقات كلها فى سلك واحد قوامه الإيمان بالله "[2] .

وهذا هو الذى لا تخرج عنه دعوة الأنبياء عليهم السلام ، فالإيمان بالله أساس كل شيء، لأنه لا يوجد سلوك منفصل عن الاعتقاد ، ومن قال بغير ذلك فقد كذب واقع دعوة الأنبياء — عليهم السلام — وإذا كان ذلك كذلك ثبت دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى المعرفة النظرية التى لا تخرج عن الاعتقاد السليم " إلى المعرفة العملية للاتجاه نحو السلوك الحسن المستقيم حسب ما يهدى الاعتقاد .

(١) تفسير القرطبى المجلد الرابع ص ٣٢٥٠ ط الشعب .

(٢) ركائز الإيمان لمحمد قطب ص ٤٣٢٠

# المبحث الثانى

# السلوك العملى فى تعاليم الكتاب المقدس

تحول تعاليم الكتاب من النظر إلى العمل :

لم تقل سيطرة السلوك العملى فى تعاليم الكتاب المقدس عند سبينوزا عن الإيمان ودعوة الأنبياء ، بل بالعكس هنا نرى سبينوزا يسرف فى نسبة السلوك العملى للكتاب، حيث إنه ربط بين السلوك العملى وقدسيته ، ورأى أن " القدسية تعزى إلى الكتاب لو كان غرضه التقوى والتدين ، ويكون الكتاب مقدراً أو من عند الله طالما يحث الناس على ممارسة الفضيلة وحياة التقوى ، فإذا لم يؤد الكتاب هذا الغرض ، وإذا توقف الناس عن ممارسة هذه الحياة السليمة ، وإذا ضاع منهم التدين الصحيح ، لم يعد الكتاب مقدساً أو من عند الله ، فالكتاب لا يكون مقدساً من عند الله إلا بقدر ما يؤثر فى الناس ويدعوهم إلى حياة الفضيلة والتقوى "[1] .

كذلك أيضاً وباسم العمل والطاعة يسرف سبينوزا فى حرية الاعتقاد ، ولأن الكتاب دون وفق مستوى العامة ــ الجماهير ــ لا الخاصة ، فكل فرد حر فى أن يكيف الكتاب حسب معتقداته الخاصة ، وفى ذلك يقول سبينوزا : " الواقع أن الكتب المقدسة ليس لها مؤلف واحد ، ولم تكتب للعامة الذين عاشوا فى عصر بعينه ، بل هى من عمل عدد كبير من الناس ذوى أمزجة مختلفة عاشوا فى عصور مختلفة ، فمؤسسوا الفرق لا نريد اتهامهم بالكفر لمجرد كونهم قد أولوا الكلام حسب معتقداتهم ولكننا نتهمهم بذلك لأنهم لا يعترفون للآخرين بنفس الحرية ، ويحتقرون من يخالفونهم فى الرأى ، فيعدونهم أعداء الله ، حتى لو كانوا يعيشون على أشرف نحو يمكن تصوره ويمارسون الفضيلة الحقة ، كما أنهم على العكس من ذلك يحبون من ينقادون إليهم كالأنعام وكأنهم أصفياء الله ، حتى ولو كانوا بعيدين كل البعد عن الخلق القويم "[2] .

---

(١) رسالة اللاهوت والسياسة ص ٧٤ مقدمة المحقق .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٦ باختصار .

وهنا تتحول تعاليم الكتاب من كونها نظرية بمعنى أنه يجب الإيمان بها كما أتت من عند الله على لسان الأنبياء إلى كونها عملية ، حيث إنه جعل لكل فرد الحق فى أن يكيف الكتاب حسب معتقداته الخاصة ، إذا كان يرى فى ذلك وسيلة لطاعة الله فى الأمور المتعلقة بالعدل والإحسان .

ومن هنا فإنه لم يتهم مؤسسى الفرق بالكفر لمجرد تأويلهم كلام الكتاب حسب معتقداتهم ، وإنما اتهمهم بالكفر لأنهم لا يعترفون للآخرين بنفس الحرية ويحتقرون من يخالفوهم فى الرأى يعنى الاعتقاد ، فيعتبرونهم أعداء الله مع ممارستهم الفضيلة، ويجبون المنقادين لهم يعنى من كان على عقيدتهم ، حتى ولو كانوا بعيدين عن الخلق القويم، فالخلاف بين الفرق ينبغى أن يكون بعيداً عن الدين .

وهنا يمكننا أن نقول إن مذهب سبينوزا ينتمى إلى مذهب " الاستقلال وعدم وصاية الغير على الإنسان فى تحديد السلوك : وهو المذهب الذى يرى أن عقل الإنسان كفيل بتحديد التصرفات وتحديد القيم الأخلاقية والعناية الخلقية ، والإنسان مستقل فى هذا وليس بحاجة إلى رسالة من وحى السماء "[1] .

ولذلك فإن سبينوزا قرر أن تعاليم الكتاب تحتوى على جانب ضئيل من الحقائق النظرية وهو يسير للغاية ، لأن الله لم يوح للأنبياء بأمور فلسفية عميقة ، بل أوحى إليهم بأفكار يسيرة للغاية فأكد أن " هدف الكتاب لم يكن تلقيننا العلوم ، إذ إننا حينئذ نستطيع أن نستنتج من هذا أنه يطلب من الناس الطاعة وحدها ويدين العصيان لا الجهل"[2].

بعد هذا النص من سبينوزا على تحول تعاليم الكتاب من النظر إلى العمل ، لأنه حصرها فى الطاعات وأن الكتاب يدين العصيان وهو سلوك عملى ولا يدين الجهل، نريد أن نسأله عن الطاعة التى يطلبها الكتاب من الناس ، هل هى طاعة الله ــ عز وجل ــ وهل تكون بحسن الاعتقاد اللازم للإيمان به ؟

---

(١) من قضايا الفكر الفلسفى د/ محمد البهى ص ٦٨ العدد ١ ذى القعدة سنة ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م .

(٢) رسالة اللاهوت والسياسة ص ٣١٩ .

لو بحثنا فى الرسالة اللاهوتية عن الإجابة عن ذلك نرى أن سبينوزا ينص على أن طاعة الله التى يطلبها الكتاب تنحصر فى حب الجار ، فهى بعيدة عن الإيمان بالله والاعتقاد فيه ، وهاهو نص كلامه:

" ... ولكننا نعلم أن طاعة الله تنحصر كلها فى حب الجار ، إذ يؤكد بولس فى الرسالة إلى أهل رومية ( ١٣ : ٨ ) أن من يحب جاره ، أعنى من يحبه طاعة لله تتحقق لديه الشريعة ، وبالتالى لا يوصى الكتاب بأية معرفة إلا المعرفة اللازمة لجميع الناس، حتى يطيعوا الله وفقاً لوصيته ، وهى المعرفة التى يصبحون بدونها عامين أو على الأقل يفتقرون إلى كل قاعدة للطاعة ، أما التأملات النظرية التى لا ترمى مباشرة إلى تحقيق هذا الغرض — سواء كانت متعلقة بمعرفة الله أم بمعرفة الأشياء الطبيعية ، فإنها لا تنتمى إلى صميم الكتاب ، ويجب فصلها عن الدين الموحى به "[1] .

وهنا نرى أن تعاليم الكتاب تحولت من النظر إلى العمل عنده حتى فى المعرفة التى يدعو إليها الكتاب ، حيث إنه بين أن الكتاب لا يدعو إلى أية معرفة تنتمى لجميع الناس، لتسهل عليهم الطاعة التى حصرها فى حب الجار ، وجعل اكتمال الشريعة والناموس فيها ، واعتبر فاقدها عاصياً ، فأبعد المعرفة النظرية حتى ولو بالله عن تعاليم الدين الموحى به .

ففلسفة سبينوزا هذه فلسفة إلحادية بلا شك ، لأنها تفصل الأخلاق عن السلوك العملى عن اللاهوت ، وهى مسألة خطيرة لها أثرها السلبى على الاعتقاد .

ولذلك فليس غريباً على سبينوزا — بعد ذلك — ولا سيما وهو من القائلين بالخيال فى الوحى — أن يفرط فى إغفال الجانب النظرى فى الاعتقاد قائلاً :

" ... وليس هناك أيضاً ما يدعو للدهشة إذا وجدنا الكتب المقدسة تتحدث عن الله بألفاظ لا تليق به ، فتنسب إليه يدين وقدمين وعينين وأذنين ، كما تنسب إليه حركات فى المكان وانفعالات للنفس كالغيرة والرحمة ... والواقع أن الكتاب يتحدث على مستوى فهم العامة

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

الذين يهدف الكتاب إلى أن يجعلهم مطيعين لا متفقهين"[1] .

وهذه النزعة لاسبينوزا قد سبقه بها برونو ( سنة ١٦٠٠ ) فقد " كان لا يرى اللاهوت إلا أداة عملية لتنظيم السلوك العام ، ولا يراه علماً نظرياً وعملياً قائماً على الحقائق الموحى بها"[2] .

## السلوك العملى وغرض الكتاب :

جعل سبينوزا غرض الكتاب المقدس وغايته وظيفة عملية ، حيث إنه حصرها فى الطاعة وحدها ، ويظهر ذلك من قوله : " إن غرض الكتاب الوحيد هو تعليم الطاعة وهو أمر لا يمكن أن يعارضنى فيه أحد "[3] .

ولا يكتفى سبينوزا بذلك بل يؤكد كلامه بغرض كتب العهدين القديم والجديد، فيجعل منهما دعوة عملية بأدائها إلى الطاعة فيقول :

" فمن ذا الذى لا يرى حقيقة أن العهدين القديم والجديد ، لا يعطيان إلا درساً فى الطاعة ، وأن الغاية التى يرميان إليها هى جعل الناس يطيعون عن رضا ... إن موسى لم يحاول حقيقة إقناع الإسرائيليين بالفعل ، بل جمع بينهم بعهد وبحلف وبأعمال طيبة قدمها إليه ، ثم حث الشعب على طاعة القوانين ، منذراً العاصيين بالعقاب ومبشراً المطيعين بحسن الثواب ، وكلها وسائل لا جدوى منها حين يكون الأمر متعلقاً بتحصيل المعارف ، ولكنها فعالة فى تحقيق الطاعة وحدها ، ولا يدعو الإنجيل إلا إلى الإيمان اليسير ، وهو الإيمان بالله وبتسجيله أى طاعته[4] .

---

(١) رسالة اللاهوت السياسية ص ٣٥٣ .

(٢) الله فى الفلسفة الحديثة ص ٤٣ بتصرف يسير .

(٣) رسالة اللاهوت ص ٣٥٦ .

(٤) الرسالة اللاهوتية ص ٣٥٦ .

نقد المسألة :

إن ما حصر فيه سبينوزا دعوة الكتاب المقدس بجعله يحث الناس على الفضيلة فقط، وأن الكتاب يدين العصيان " وإذا توقف الكتاب عن هذا الغرض لم يكن مقدساً لا نوافقه عليه إلا إذا غير اسم الكتاب من المقدس إلى المحرف ، لأنه حينئذ يكون لا عبرة به .

أما أن يخلع عليه وصف القداسة بحصره فى هذا الجانب العملى ، وإغفال أهم جانب من الجوانب التى اشتملت عليها الكتب المقدسة فهذا مالا نوافقه عليه بحال من الأحوال .

وإلا فكيف نوافقه على تعبيره عن الكتب المقدسة التى أنزلها الله ، بأنها ليست إلا مؤلفات لعدد كبير من الناس ذوى أمزجة مختلفة ، وكأنه أو بعبارة أدق ـــ إنه ـــ يشبهها بمجموعة مقالات صحفية فى مجلات عدة ـــ بدليل تبريره لاختلافه مع مؤسسى الفرق ، وبدليل تجويزه تـــشبيه الله بصفات البشر ، لأنه لا يهمه التطوع بل الطاعة .

لهذا وغيره فإن فكر سبينوزا هذا لا يتمشى إلا مع كتابه المحرف الذى دون وحرف وفق أهواء هؤلاء الأفاكين ، الذين قال عنهم القرآن الكريم : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَـــنْ مَوَاضِعِهِ﴾[1] وقال أيضاً عنهم : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[2].

لذلك فإن كتابه لا يصح أن يكون مصدراً معتمداً نثق فيه بأن الكتاب المقدس الذى أنزله الله على اليهود والنصارى لم يحتو من الحقائق النظرية إلا على جانب ضئيل جداً ، وذلك لتحريفه كما مر .

إن ما نعتمد عليه فى معرفة ما تشتمل عليه الكتب السابقة هو كتاب الله المقدس حقاً وهو القرآن الكريم الذى تكفل الله بحفظه إلى أن تقوم الساعة .

فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله ـــ عز وجل ـــ قد أوحى إلى رسول الله ﷺ كما أوحى إلى النبيين

---

(١) سورة النساء من الآية ٤٦ .

(٢) سورة المائدة من الآية ١٣ .

، وعند حديثه عن عقيدة بنى إسرائيل أعطى صورة طيبة عنهم، وكذلك تحدث عن العقيدة التى كلفهم بها فصورها سليمة صادقة صافية ، لا تختلف عن عقيدة المسلمين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾[1].

فالعقيدة الأصلية لبنى إسرائيل كانت الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد إله الناس جميعاً ، والإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر "[2] .

وعلى ذلك فكل ما يراه سبينوزا أو أمثاله فى دعوة الكتاب المقدس إلى الطاعة وحدها واشتماله على جانب يسير من الأمور النظرية يكون قد ثبت كذبه وبطلانه بدليل القرآن الكريم فهو المصدر المعتمد الذى توزن عليه الأقوال والأعمال ، وأما اعتقاد سبينوزا هذا فلا ينم إلا عن عقلية شاذة وفكر سقيم .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٣ .

(٢) اليهودية د/ أحمد شلبى ص ١٥٩ بتصرف يسير .

# الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وعم نوره الأرض والسماوات وبرسوله محمد ﷺ ختمت الرسالات ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سعدوا فى الحياة وبعد الممات .

وبعد ...

فها هى نهاية المطاف حول قضية : " السلوك العملى فى الجانب الدينى من فلسفة سبينوزا " دراسة نقدية " .

وقد توصلت من خلال البحث حول هذا الموضوع إلى عدة نتائج أهمها :

**أولاً** : احتقار رجال الدين لفلسفة سبينوزا الإلحادية، واتهامه بالكفر والهرطقة، وتقديمه للمحاكمة .

**ثانياً** : خلط سبينوزا بين أصل الإيمان وهو الاعتقاد والتصديق وبين لازم الإيمان الذى هو العمل أو الطاعة فأحل بذلك الأخلاق محل الدين .

**ثالثاً** :عرف سبينوزا الإيمان بتعريف يشتمل على الناحية العملية فقط فخالف بذلك أولاً قواعد التعريف التى تحتم أن يكون التعريف جامعاً مانعاً ورجال الدين ثانياً، لإهماله الجانب النظرى

**رابعاً** : جعل سبينوزا الطاعة وحدها مقياساً لصدق الإيمان أو كذبه ، وجعلها أساساً للحكم على الشخص بأنه مؤمن أو كافر ، متأثراً ببعض السابقين .

**سادساً** : حول سبينوزا تعاليم الكتاب المقدس من النظر إلى العمل وجعل الغرض الوحيد للكتاب المقدس هو تعليم الطاعة ، وأن الكتاب يدين العصيان لا الجهل.

**سابعاً** : مخالفة فلسفة سبينوزا فى الجانب الدينى لكل تعاليم الإسلام الدينية والأخلاقية.

## ما يأمله الباحث :

يأمل الباحث أن يقوم أحد الباحثين بعرض قضية النبوة عند سبينوزا ويتعرض لرأيه فى الوحى والمعجزات ودعوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ويفند مزاعمه حول هذه القضايا المهمة فى جانب الاعتقاد .

وبعد فهذا جهد المقل ، فإن كنت وفقت فمن الله ، وإن كانت الأخرى فحسبى جزاء المجتهد .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبله ويهدينا إلى الصراط المستقيم ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين .

# ثبت بأهم المصادر والمراجع

## القرآن الكريم .


١. الجمعية الفلسفية المصرية ــ المحور الثالث الفكر العربي العدد السابع سنة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

٢. الإسلام دين الإنسانية د/ محمد البهي ــ سلسلة دراسات إسلامية العدد ١٦ سنة ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م

٣. الفكر الأوربي الحديث الاتصال والتغيير في الأفكار لفرانكلين ــ ل ــ باومر ترجمة د/ أحمد حمدي محمود . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م.

٤. الفلسفة العامة نظرة جديدة د/ أحمد عبد الحليم عطية ــ ط دار قباء سنة ٢٠٠١م .

٥. الله في الفلسفة الحديثة ــ لجيمس كوليتر ترجمة د/ فؤاد كامل ــ نشر دار قباء الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م .

٦. المصطفون الأخيار للشيخ عطية صقر ــ ط / الدار المصرية .

٧. الموسوعة الفلسفية .

٨. اليهودية د/ أحمد شلبي ــ ط مكتبة النهضة المصرية الطبعة الحادي عشر سنة١٩٩٣م.

٩. تاريخ الفلسفة الحديثة د/ يوسف كرم ط دار المعارف بمصر ــ الطبعة الخامسة.

١٠. تاريخ الفلسفة السياسية د/ علاء محروس ــ ط دار التعاون سنة ١٩٨٦م .

١١. تفسير القرطبي لأبي عبد الله القرطبي ط الشعب بدون تاريخ .

١٢. حياة المسيح لعباس العقاد ــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣. رسالة اللاهوت والسياسة لاسبينوزا سنة ٢٠٠٢م ترجمة د/ حسن حنفي ط دار وهدان

١٤. ركائز الإيمان لمحمد قطب ــ ط دار الشروق الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ ــ سنة ٢٠٠١م.

١٥. رواد الفلسفة الحديثة ــ ريتشارد شاخت ترجمة د/ أحمد حمدي محمود . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٦. شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي .

١٧. عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ــ ط دار الدعوة .

١٨. فلسفة الحضارة لألبرت اشفيتسر ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي ط دار الأندلس الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م .

١٩. فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها د/ توفيق الطويل ـــ نشر دار الثقافة الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٩م .

٢٠. قصة النزاع بين الدين والفلسفة ـــ د/ توفيق الطويل نشر مكتبة مصر الطبعة الثانية .

٢١. قضية الإيمان والكفر لنخبة من كبار المفكرين وعلماء الإسلام ـــ سلسلة قضايا إسلامية صفر سنة ١٤١١هـ ـــ أغسطس سنة ١٩٩٠م .

٢٢. من قضايا الفكر الفلسفي د/ محمد البهي العدد ٢١ ذي القعدة سنة ١٤١٧هـ ـــ ١٩٩٧م .

٢٣. من هدى القرآن لأمين الخولي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م .

٢٤. معجم أعلام الفكر الإنساني ـــ نخبة من الأساتذة المصريين ـــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ م .

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | رقم الصفحة |
| --- | --- |
| المقدمة | |
| تمهيد | |
| الفصل الأول : السلوك العملى فى الإيمان | |
| المبحث الأول : حقيقة الإيمان | |
| المبحث الثانى : الإيمان الصادق والكاذب | |
| الفصل الثانى : السلوك العملى فى دعوة الأنبياء والكتاب المقدس | |
| المبحث الأول : السلوك العملى فى دعوة الأنبياء | |
| المبحث الثانى : السلوك العملى فى الكتاب المقدس | |
| الخاتمة : | |
| ثبت بأهم المصادر والمراجع | |
| فهرس الموضوعات | |